لا تكبرونا بعدنا صغار

تنظيمٌ مجتمعيٌّ لمناهضة تزويج الأطفال
في سهل البقاع

لا تكبرونا، بعدنا صغار

تنظيمٌ مجتمعيٌّ لمناهضة تزويج الأطفال

دراسة حالة من كتابة

جُمان أبو جبارة

باللغة الانكليزية

ترجمة

مؤسسة أهل

تم النشر من قبل: منظمة النساء الآن من أجل التنمية ومؤسسة أهل

www.women-now.org

www.ahel.org

ليست للبيع

© النساء الآن من أجل التنمية وأهل

2022

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنشر أي جزء من هذا المستند أو إعادة إنتاجه أو استخدامه بأي شكل من الأشكال دون إذن مكتوب وصريح من الجهة الناشرة. يحق نسخ وإعادة توزيع النص باستخدام أي وسيط أو تنسيق، بالإضافة إلى إعادة مزج المحتوى وتحويله والبناء عليه شريطة ذكر الجهة المالكة للمحتوى الأصلي، وتقديم الرابط الأصلي، وبيان ما إذا تم إجراء تغييرات. يُمكن القيام بذلك بأي طريقة معقولة، ولكن ليس بطريقة توحي بأن الجهة الناشرة تدعم هذا الاستخدام. لا يجوز استخدام المحتوى لأغراض تجارية. في حال تم إعادة مزج المحتوى أو تحويله أو البناء عليه يجب توزيع المساهمة بموجب نفس الترخيص مثل الأصل.

لا تكبرونا، بعدنا صغار
تنظيمٌ مجتمعيٌ لمناهضة تزويج الأطفال في سهل البقاع [1]

السير نحو المجهول!

في أيلول ٢٠١٩، بدأ أنس تللو - منسق برنامج المناصرة والتواصل في منظمة النساء الآن من أجل التنمية - وهي منظمة نسويّة تعمل على تمكين النساء والفتيات - السعي لحشد أفراد المجتمع في سهل البقاع في لبنان، لتشكيل الفريق المؤسس لحملة ضد تزويج الأطفال. لم يكن لدى أنس اسم ولا أهداف محددة للحملة في ذلك الوقت، ولا أدنى فكرة كيف سيكون مصير هذا العمل. وعلى الرغم من الشعور بالسيّر نحو المجهول، إلاّ أنه كان مؤمناً بأن نجاح الحملة يعتمد على قيادة المتأثرات بظاهرة تزويج الأطفال أنفسهّن للحملة.

إيمان أنس بقيادة المتأثرات بتزويج الأطفال للحملة نابع من تجاربه الخاصة؛ إذ كان لتجربة خالته وقع عميق في نفسه، «فقد اكتسبت نوعًا من المعرفة العامّة التي مكنتها من تعليم أطفالها كل شيء بما في ذلك الرياضيّات.» وعلى الرّغم من زواجها المبكر وهي في الصف الخامس، إلاّ أنها «[كانت] دائمًا هي التي تقوم بجميع الحسابات عندما نلعب الورق، ويتألم قلبي عندما أفكر كيف زفّت عروساً وهي طفلة في ذلك العمر، ولديها الكثير من الإمكانيات»، وتلك هي ملاحظة أنس الفطرية التي يقدرّها بعمق.

تخرّج أنس من الجامعة مهندسًا معماريًا، إلاّ أنّ حصوله على درجة الماجستير في علم الاجتماع الحضري وعمله في المناصرة والدعم النفسي الاجتماعي والمواطنة والتنوّع الثقافي، كلّ ذلك أكد إيمانه المتجذرّ بأنّ الحلول تكمن بقيادة المجتمع، وإذ ثم هنالك حلّ لقضية تزويج الأطفال فحتماً يجب أن تكون بقيادة أهل البقاع المتأثرّين بتزويج الأطفال. وتمكّن أنس من وضع معتقده موضع التنفيذ، عندما تعرّف خلال نفس العام على منهجيّة التنظيم المجتمعي التي بدأت بتطبيقها آنذاك حملة أخرى تدعمها منظمة «النساء الآن» وتُسمى عائلات من أجل الحرية [2].

لحسن الحظ بالنسبة لأنس، لم يكن وحده من آمن بأهمية تسلّم القيادة لأفراد المجتمع الأكثر تأثراً. وعلى الرغم من خمس سنوات من المناصرة والتوعية، والتدريب، وبناء القدرات لمعالجة قضيّة تزويج الأطفال، كانت منظمة «النساء الآن» محفوفة بالأعداد الهائلة نفسها من الفتيات السوريات، واللبنانيات، والفلسطينيات، (وبعض الفتيان) الذين يتم تزويجهنّ قبل الثامنة عشرة من أعمارهنّ.

إنّ سهل البقاع يستضيف نسبة أعلى من هذه الزيجات، وهي سائدة بشكل خاص بين مجتمع اللاّجئات.ين السوريات.ين لأسباب مختلفة بما في ذلك الحرب والأمن، والحاجة الاقتصادية، والتقاليد، والأعراف الجندرية [3].

أثناء عملي وفي كثير من المرّات، رأيت فتيات صغيرات ذكيات لديهنّ إمكانات غير مستغلة مثل خالتي، كنّ يحضرن إلى جلساتنا مع أطفالهنّ حديثي الولادة على أكتافهنّ [...] وهنّ على دراية بمخاطر تزويج الأطفال، ولكن كُنّ يتساءلن «ما الذي سنفعله حيال ذلك؟

هنا، أدرك فريق المناصرة في منظمّة النساء الآن أنه بحاجة إلى «شيء أكثر من المحاضرات وورش العمل»، من أجل التكيُّف مع هذه الحاجة وهذا الواقع. وبدفعة إيمانية أكبر بضرورة التغيير، قررت «النساء الآن» تغيير آلية العمل، من خلال تبّني نهج التنظيم المجتمعي.

وهكذا دخلوا في شراكة مع مؤسسة أهل، وهي مؤسسة متخصصة بنهج التنظيم المجتمعي ومُرافقة لحملات التغيير، وكانت بالفعل تقوم بذلك الوقت بتمكين قياديّات حملة عائلات من أجل الحرية.

وحول التحول في آلية عمل المنظمّة تجاه تزويج الأطفال، أوضح أنس أنّ السبب وراء الاختلاف في هذه المحاولة هو أن:

«النساء اللاّتي كنا نعمل على دعمهنّ، يأخذن الآن زمام المبادرة لحل مشكلتهنّ باستقلاليّة كاملة».

ولتمكين هذه الاستقلالية، لم تقدم منظمة النساء الآن الدعم اللوجستي والمالي للحملة فحسب، بل أعطت أنس الضوء الأخضر لتخصيص ٦٠٪ من وقته ليصبح منسقًا للحملة.

بدأ أنس ونسرين حاج أحمد، الشريكة المؤسسة ومديرة أهل والتي تعلَّمت نهج التنظيم المجتمعي من البروفسور مارشال غانز في جامعة هارفرد [٤]، بعقد اجتماعات أسبوعيّة، لتزويد أنس بالمهارات والأدوات اللاّزمة لأداء دوره كمنسقٍ للحملة. وبحلول ذلك الوقت في أيلول، شرع أنس في حشد منظِّمات رئيسيّات للفريق المؤسس، والتقى بالعديد من النساء الملهمات اللّواتي شاركن في بعض البرامج، مثل برامج التمكين والحماية والمشاركة السياسية والاجتماعية. تواصل أنس في البداية مع سبع نساء واستمع إلى قصصهنّ، وانضمت ثلاث منهنّ إليه؛ لتشكيل الفريق المؤسس للحملة. فاطمة العتر، وصفاء سلاّت، وراما الصوص، جميعهنّ من المتأثرات بتزويج الأطفال، وعايشن العزلة والأذى الجسدي والنفسي، أو فقدن الآفاق المصاحبة لأثر تزويج الأطفال، ولذلك لم يرغبن في رؤية أي فتاة أخرى تتحمل ما تحمّلنه.

في الحقيقة، تروي فاطمة: «عندما توجّه إليّ أنس وسمعت منهُ عبارة تزويج الأطفال، قلتُ له أنا معك على الفور، فقال لي انتظري، ألا تودين سماع المزيد؟ فقلت له: لا، أنا معك حتى النهاية». ففي تلك اللّحظة بالذات من حياة فاطمة، كانت ابنتها - التي أجبرها الأب على الزواج في سن الرابعة عشرة - تعاني بشدّة من التهاب عصبي ناتج عن الأذى الجسدي الذي تعرضت له من زوجها، وقد قررت فاطمة وضع حدٍ لهذا الكابوس، ولم تعبأ بتهديد زوجها عندما قال «إذا أردتِ أن تتطلق ابنتنا فاعتبرِ نفسك مطلقة أيضًا»، فأجابته بالقبول!. في الحقيقة، لا يمكن أن يدور الحديث بين فاطمة وأنس في وقت أنسب من ذاك!

لم يعد أنس وحيدًا، فقد كانت النساء الثلاث المنضمّات إليه رائعات و مستعدّات للمهمّة رُغم كل الصعوبات الشخصية التي مررن بها، لقد احتجن فقط إلى حشد المزيد من الأشخاص ° لفرق القيادة.

أوّل سؤال طرحنه على أنفسهنّ هو «من هنّ.م ناسنا أو أهل قضيتنا؟»، وحدّدن أهل القضية على نطاق واسع لتشمل النساء، والفتيات اللاتي تعرّضن لتزويج الأطفال، والفتيات والشبان الذين يقاومون تزويج الأطفال، وأولئك الذين وُلدوا لأب أو لأم قاصرَين. وقد ركزن على منطقتين جغرافيتين في البقاع هما مجدل عنجر وشتورة، حيث تدير منظمة النساء الآن مراكزاً مجتمعيّة في هذه المناطق لعدة سنوات، وقد أقامت خلالها علاقات قوية مع السكان، وخلقت بيئة من الثقة والأمان للعديد من النساء المحليّات. وبالتركيز على مجدل عنجر وشتورة، استفاد الفريق من موارد المنظمة الموجودة مسبقًا.

وما إن بدأن حملة الحشد، اشتعلت ثورة شعبية في البلاد، ويواجه أنس وفاطمة وصفاء وراما الآن التحدي المتمثل في «العثور على الأشخاص الذين **يؤمنون** بضرورة النضال ضد تزويج الأطفال، إضافةً إلى **الالتزام** بالعمل عليه في ظل الاضطراب السياسي الخطير. وعلى الرغم من ذلك، قررت المجموعة عدم التنازل عن جودة البحث، وأصرّت على التمسك بمعايير الاختيار الخاصة بها - أي أن تكون العضوات الجدد مُنتميات إلى أهل القضية المتأثرات، ولسن مدفوعات للحصول على بدل مالي، ولديهنّ روابط مجتمعية قويّة وعقليات منفتحة.

وفي هذه المرحلة، عيّنت مؤسسة أهل مدربة رئيسية مخصصة - روان الزين - مدربة التنظيم المجتمعي، والآن هي مديرة التدريس والتعلم في أهل - لتمكين ومرافقة المنظِّمات في رحلتهنّ القيادية. وبالدعم التمكيني من روان وأنس، واصلت فاطمة وصفاء وراما عقد اجتماعات واحد لواحد مع ما يقرب من ٤٠ من القياديات المحتملات في منطقتي مجدل عنجر وشتورة، من اللواتي شاركن قصصهنّ معهنّ واستمعن إليهنّ.

تتحدث روان بفخر «لقد كانت عملية حاسمة للغاية، كانت [فاطمة، صفاء، راما] يقمن بتحديث نتائج اجتماعاتهنّ على ورقة إكسل ويتداولن مع بعضهنّ البعض ومعنا القصص التي سمعنها وخياراتهنّ وتقييماتهنّ للقياديات المحتملات. ببساطة، لقد أردن الحصول على الأفضل، وقد فعلن ذلك.

ولكن، النتائج لم تكن جميعها وردية ومثالية، بالنظر إلى أنّ الكثير من الناس وخاصة الرجال، الذين اعتبروا هذا الموضوع خطّاً أحمراً. مثل ما حدث لراما عندما طردها زوج امرأة كانت تحاول حشدها لفريق القيادة في منزلها، وعلى الرغم من كثرة العوائق، تكاثرت الثلاث الرائعات وأصبحن ١٧ قائد وقائدة بغالبية نسائية، واللواتي شكّلن الفريقين القياديين في مجدل عنجر وشتورة، الفريقان اللذّان سيحولاّن هذه الحملة لاحقًاً إلى حقيقة، وستُعرف الحملة باسم «لا تكبرُونا بعدنا صغار»، والمشار إليها اختصارًا في دراسة الحالة هذه باسم (لا تكبرُونا).

خلق واقع جديد

«في كل مرة نواجه فيها عقبة، كنا ندعو إلى اجتماع طارئ، للتوصل إلى حلٍ بديل [...]، إن هذا الألم هو ألمنا، وليس هناك من سبيل للتوقف». - غيداء دوماني - عضوة أساسية في الفريق ومنسقة فريق شتورة.
نحن الآن في تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠١٩. حضرت القياديات السبع عشرة مجهزات بتجاربهنّ الحيّة، وعلى خلفية الثورة اللبنانية، ورشة عمل لمدة يومين بقيادة نسرين وروان، إذ تحدثن بشكل تشاركي عن قصة الحملة واستراتيجيتها وكيانها. وتبين أن لديهنّ فكرة مجردة عن التغيير الذي يرغبن تحقيقه في نهاية المطاف، وهو الحد من تزويج الأطفال في البقاع.

ولكن «كيف سنفعل ذلك؟» يسأل أنس «من أين نبدأ؟ كيف نقيس الأثر؟». وتقول روان متأمّلة بموضوع تحديد الهدف: «هناك الكثير من العوامل الخارجية التي تؤثر على زيادة هذه الزيجات، لذا كان التفكير في الهدف الاستراتيجي صعبًا للغاية لأنه لم يكن من السهل قياسه».

عندما يبدأ النقاش، تذهب القياديات في تحليل الأسباب الكامنة وراء تزويج الأطفال، وتحديد «التقاليد والأعراف المجتمعية» كعامل أساسي، وإن لم يكن العامل المؤثر الوحيد. ويفكرن من خلال ذلك بـ «كيف نحدث تغيراً في الأعراف والتقاليد؟»

> ونتيجة المداولات والمشاورات، تكون إجابة القياديات، أنهنّ سيحدثن تحولاً وتغييراً إذا تمكنّ من إظهار أنّ تزويج الأطفال « ليس جزءًا من تقاليدنا في الحقيقة، وأنّ هناك كتلة قوية أو ذات وزن في مجتمعنا تعارضهُ ولكن صوتها غير مسموع.»

وفي نهاية اليومين تبلورت أهداف الحملة، واتضحّت للقياديات خطة البدء، فالهدف الاستراتيجي هو الحصول على توقيع من ٥٠٠ أسرة في مجدل عنجر وشتورة، تتعهد فيه الأسر بعدم تزويج أطفالها قبل سن ١٨، وأيضاً تغيير موقف ١٠٠ عائلة مؤيدة لتزويج الأطفال. وقد تناقشت القياديات في تحديد إن كنّ سيستهدفن العائلات المؤيدة لتزويج الطفلات أو أولئك الذين يعارضونها أيضًا.

يقول أنس «نظريتنا في التغيير كانت أنّه إذا أظهرنا أنّ كتلة قوية وذات وزن تعارض هذه الأعراف والتقاليد [المفترضة]، فيمكننا تحقيق هدفنا العام». والهدف هنا هو تقليل النسبة المئوية لتزويج الأطفال، لذا فإن العدد المستهدف منخفض نوعًا ما حسب اعتقاد روان، وتشاركها بقية القياديات في هذا القلق، وحول ذلك يقول أنس: «كنا خائفين وخائفات من جعل هدفنا بعيد المنال».

بشكل ملحوظ، أحد الجوانب المعقدّة حول الأعراف والتقاليد في هذا السياق هو أنّ الناس يميلون إلى الخلط بينها وبين الدين وهذا يضيف طبقة أخرى من الحساسّية ومساحة كبيرة للاستقطاب. القياديات يعرفن ذلك جيدًا، لذا فقد صغن الفرضية الثانية للتغيير التي ستوجّه نهجهنّ، وهي إثبات أن هنالك شخصيات دينية مسيحية ومسلمة (سنة وشيعة) تعارض تزويج الأطفال.

مع تحديد التوجه الاستراتيجيّ، شرعت القياديات مرة أخرى في حشد المزيد من القياديات والقادة، والغاية هذه المرّة تشكيل فرقهنّ الفرعيّة عبر الأحياء المختلفة داخل مجدل عنجر وشتورة، وبالتالي سيكنّ قادرات على الوصول إلى هدفهنّ.

خلال هذا الوقت، انخفض عدد القياديات السبع عشرة إلى عشرة، لكن عمليّة التصفية هذه « تركت لنا الملتزمات حقًا اللّواتي يأخذن عمل الحملة على محمل الجد» كما تقول فاطمة. ويكشف هذا التقلب أيضًا عن التغيّرات المفاجئة في الحياة التي يعيشها سكان البقاع، وخاصة اللاجئين واللاجئات السوريين مثل راما التي اضطرت للانتقال إلى جنوب لبنان وبالتالي تركت الحملة.

لكن أحد الجوانب المهمّة في جوهر نهج التنظيم المجتمعي هو الحفاظ على استمرارية القيادة الجماعية التي يتم تمكينها من خلال التدريب ونقل المعرفة. ولذلك، ومن وراء الكواليس تقوم فاطمة وصفاء بتوجيه عضوات فريقيهما حول كيفية إجراء اجتماعات حشد فردية، ومشاركة ما تعلمنه من حملة الحشد الأولى.

وبعد سلسلة مما يقرب من مائة اجتماع فردي، طلبت القياديات العشرة من ٤٢ منظمة ومنظماً جديدًا الانضمام إلى الحملة، وينمو كل فريق من الفريقين القياديين إلى خمسة فرق فرعيّة، وهذا ما يُعرف باسم هيكل «ندفة الثلج» ويشار إلى القياديات والقياديون في تلك الفرق الفرعيّة بمنظِّمات ومنظِّموا الفرق الممتدّة الثانية للإشارة إلى الطبيعة الموسّعة للقيادة داخل هيكل «ندفة الثلج».

ومع مثل هذه الندفة الثلجية الجميلة وسط عاصفة ثلجية قويّة في شباط، تقود روان الفريق خلال ورشة عمل تنظيم مجتمعية ثانية، إذ يجتمع المنظمون والمنظمات جميعهنّ لمدة ثلاثة أيّام كاملة لمشاركة قصصهنّ، وإعداد فرقهنّ، ومراجعة الاستراتيجية الشاملة، والاتفاق على معايير الفرق الممتدة والتخطيط لأنشطتهنّ. وقد اتفقّن على ممارسة التكتيك الأساسيّ للحملة، وهو الاجتماعات المنزلية من أجل الوصول إلى ٥٠٠ تعهد و١٠٠ عائلة مقتنعة. وفي الحقيقة، فإن الاجتماع المنزلي هو تكتيك متجذر في العمل الاجتماعي؛ حيثُ تدعو إحدى عضوات المجتمع وبدعم من إحدى منظِّمات الحملة من ١٠ إلى ٢٠ شخصًا إلى منزلها، لمشاركة قصصهنّ، وفي نهاية اللقاء تطلب من الأشخاص الحاضرين التوقيع على التعهد. ولذلك، كانت الاجتماعات المنزلية هي التكتيك المثالي، ليس فقط لتحقيق هدفهنّ؛ ولكن أيضًا لانسجامها مع نوع المجتمع المترابط الذي ينتمين إليه.

ومع ذلك، أن يكون المجتمع مترابطًا، فإن ذلك يعني مجموعة من التحديات الخاصة به. ونظرًا لأنه من السهل تفسير القصص على أنها نشر للفضائح العائلية الخاصة «نشر ملابس متسخة»، ولأن بعض الأشخاص لديهم أفكار محدّدة مسبقًا حول الزواج والأعراف الجندرية؛ فمن الصعب على المنظِّمات مشاركة قصصهنّ الشخصية - قصص الألم والصدمة حول المحرمات الاجتماعية - في مساحة ليست آمنة بالضرورة. ولكن! نظرًا لأن السرد في التنظيم المجتمعي يتعلق أيضًا ببث الأمل، فهو بالتالي يساعد على بناء القوّة الداخليّة للقيادية التي تحكي قصتّها عندما ترى أثر القصّة في تحريك المستمع.ة إلى التصرّف، وهذا ما يجعل مشاركة القصص أداة قويّة وفاعلة.

لـذا، واسـتجابة لهـذا التحـدّي، تقـود روان جلسـات فرديـة مـع ١٠ مـن المنظِّمـات لتدريبهـنّ علـى روايـة قصصهـنّ فـي اجتماعـات منزليّـة. وتقـول روان واصفـة جلسـات التدريـب علـى روايـة القصـص: «كانـت هنـاك دمـوع وصمـت وضحـك [...]، فقـد كانـت القصـص مغمـورة بالمـوت والحيـاة والتضحيـة والشـجاعة والمقاومـة للنهـوض مـن جديـد، كانـت جلسـات كثيفـة وملهمـة للغايـة أيضًـا».

إنـه آذار ٢٠٢٠ وقـد بـدأت عضـوات الحملـة فـي العمـل، عقـدن ٢١ اجتماعًـا منزليـاً مـع مـا مجموعـه ١٩٨ شـخصًا مـن المجتمـع المحلي الآن، ويعتقـد الفريـق المؤسـس أن الجـزء الأصعـب مـن العمـل قـد انتهـى، بعـد أن تغلّبـن علـى القيـود التـي أوجدتهـا الثـورة والعاصفـة الثلجيـة. لكنهـنّ لـم يعلمـن أن جائحـة عالميـة تنتظرهـنّ، وأنّ سلسـلة مـن الأزمـات المدمـرة سـتلحق الفوضـى بالبلـد...

مـن المفتـرض أن تسـتضيف لينـا درويـش - وهـي مُنظِّمـة فـي الفـرق التوسـعية الممتـدة الثانيـة، وعضـوة فريـق شـتورة الفرعـي - اجتماعـا منزليًـا يـوم الأحـد ٢٢ آذار.

لينا حريصة جدًا على الحملة؛ لأنها كانت طفلة عندما أنجبت طفلها الأول، وهي تجربة عرّضت حياتها للخطر، إذ عانت لسنوات من سوء المعاملة، حتى حصلت في النهاية على الطلاق. ولاحقًا دخلت لينا في زواج ثانٍ كشخص بالغٍ، ولكن هذه المرة اتخذت قرار الزواج بنفسها وهي متزوجة بسعادة من شريك يدعم نشاطها. لذا، فإن هذه الحملة عزيزة جدًا على قلبها.

في يوم السبت، اتصلت لينا بجميع النساء العشرين اللاتي وُجهّت لهن الدعوة وأكدنّ حضورهن، علماً أنّ بعضهنّ قادمات من مناطق جغرافية بعيدة. ولحرص لينا على الجدول الزمني الذي حدّده الفريق لنفسه، تخلد إلى نومها باكراً وهي سعيدة؛ لأنّ كل شيء على ما يرام، إلا أنها تستيقظ في صباح اليوم التالي، لتكتشف أنّ هناك إغلاقًا على مستوى البلاد، وذعرًا واسع النطاق أثاره فيروس كوفيد - ١٩! يرنّ هاتفها بلا توقف مع قيام النساء بإلغاء حضورهنّ، وتسألها الأخريات عمّا يجب عليهنّ فعله، لكنها لا تعرف ماذا تفعل بنفسها! تقول لينا: «لقد كانت فوضى عارمة» وفي النهاية، وبالتشاور مع الفريق، ألغت الاجتماع حفاظًا على صحّة الجميع وسلامتهنّ.

تقول غيداء دوماني - وهي منظمّة أساسيّة للفريق في الحملة - واصفة الصعوبات التي فرضها الوباء عليهنّ» صحيح أن الوباء فرض علينا واقعًا جديدًا؛ لكننا تكيّفنا! ففي البداية، انتقلنا من الاجتماعات المنزلية إلى الاجتماعات الأصغر، ثمّ إلى الاجتماعات الفردية، ولكن بعد ذلك تم فرض حظر أي نوع من التجمعات الوجاهية، ولذلك انتقلنا إلى المكالمات الافتراضية. وفي كل مرّة نواجه فيها عقبة، كنا ندعو إلى اجتماع طارئ، للتوصل إلى حلٍ بديل، هذا الألم هو ألمنا، وليس هناك من سبيل للتوقف.

وبحلول حزيران ٢٠٢٠ تفاجأت المجموعة بتجاوزها لأهدافها الاستراتيجية، حيث استطاعت الحصول على تعهدات من ١٨٢٦ أسرة و١٧٦ أسرة غيّرت موقفها من تزويج الأطفال. هذه لحظة إدراك حاسمة للفريق تقول روان «لأنهم أدركوا مدى المقدرة لديهنّ».

قامت حوالي ١١٠٠ من هذه الأسر بترجمة تعهداتها إلى عمل ملموس من خلال وضع شعار الحملة على واجهات منازلها أو خيامها. وعندما خرجت القياديات لتعليق الشعارات مع العائلات المناصرة، تجمّع أشخاص آخرون حول المنازل لطرح الأسئلة. وأراد بعضهم المشاركة في الحدث؛ لذلك قاموا بتعليق الشعار على منازلهم. كما علّق آخرون الشعارات على سياراتهم.

المنظمون.ات يعلقون شعار الحملة على مساكن العائلات الملتزمة بقضية الحملة

وأشارت فاطمة إلى أنّ ما يحدث كان نتيجة لظهور أهدافنا إلى العلن، مما جعل الناس يعرفون من نحن. علاوة على ذلك، حصلت الحملة على دعم ثماني شخصيات دينية من مختلف الأديان والطوائف من خلال تسجيل فيديو يدعو إلى مناهضة تزويج الأطفال، بالإضافة إلى تأييد خمس بلديات في البقاع للحملة.
بعد مضيّ الأيّام، تتفكّر فاطمة بما حدث: «بالتأكيد لم يكن [تحقيق كل ذلك] سهلاً ... فقد منعنا [الحارس] الشاويش في أحد المخيمات من الدخول، لذا كان علينا مقابلة سكان المخيم خارج المخيم. وبالطبع، كانت الأزمة الاقتصادية المتفاقمة تعني ندرة الكهرباء والوقود وصعوبة الالتقاء والتنقل، لكننا لم نألُ جهداً في مواجهة كل ذلك لتحقيق الهدف المنشود ولقد فعلناها "

فما سر هذا النجاح إذاً؟

قول الحقيقة للسلطة

«لا يكفي إخبار الناس بأنّ تزويج الأطفال له عواقب وخيمة على الصحة العقلية والبدنية للطفلة، ولا يكفي إخبارهم أنه إذا حصل أطفالهم على التعليم، فسيتمتعون هم وأفراد أسرتهم بحياة أفضل؛ لقد استخدمنا قصصنا الواقعية لتغيير المجتمع، ومن قصصنا حولنا ألمنا إلى أمل». تقول فاطمة العتر- عضوة الفريق المؤسس، ومنسقة فريق شتورة والمنسقة المنتخبة للحملة لاحقاً.

في معظم الزيارات التي قامت بها غيداء، كان لدى أفراد العائلات شكوك بشأنها وحول دوافعها. وبالنسبة لهم غيداء غريبة وتعارض ما يعتقدون أنّه صواب؛ وفيه مصلحة لابنتهم، ويعارض ما آمنوا به طوال حياتهم. ولكن بمجرد أن شاركت قصتها معهم، شعرت أن «شكوكهم تتلاشى» مع إدراكهم «أنني هناك لأنني أهتم بهم. لأنني لا أريد أن تُفوّت بناتهم تعليمهنّ مثلما فعلتُ عندما تركت المدرسة في سن الخامسة عشرة لأتزوج، ولا أريد أن يتخلّى الزوج عن ابنتهم بعد ١١ شهرًا فقط من الزواج مثل ما حصل مع ابنتي، ولا أريد أن تمر تلك الأم وهذا الأب بالندم والعذاب اللذَين شعرتُ بهما لترك ابنتي تتزوج في سن صغيرة».

يبدو أن جميع قياديات الحملة يشاركن غيداء مشاعرها. تؤكد لجين طواشي، وهي - مُنظِّمة في فريق فرعي من مجدل عنجر - أنّ «حملتنا نجحت لأنّ معظم عضواتها تأثرن بتزويج الأطفال بطريقة أو بأخرى».

> وتتذكر لجين «عندما كنا نتحدث إلى مجتمعنا، تمكّنا من نقل الألم الذي شعرنا به في حياتنا، فبعض الناس يفعلون ذلك لأنها وظيفتهم، لكننّا نفعل ذلك لأنها حياتنا».

أما كوثر عبد الفتاح - منسقة لبنانية لشبكة من المنظمات غير الحكومية المحلية ومُنظِمة في الحملة - فتعكس تجربتها الخاصة في العمل في هذا المجال لتخلص إلى أنّ حقيقة الأمر هي أنهنّ [المُنظِمات في الحملة] مدفوعات بتجاربهنّ الحيّة، ويملكن شيئًا لا نملكه! وفيه تكمن قوتهنّ.

وعلى أية حال، فإن قوّة القصة وتأثيرها قد تجاوز الحدّ في استخدامها من قبل عضوات الحملة. فمثلاً، هناك خالدية أم عزباء لثلاث بنات وابن واحد، كانت قد لجأت من سوريا نتيجة الحرب. وبسبب افتقارها إلى الموارد الماليّة اللازّمة لإعالتهم بشكل كافٍ، زوّجت خالدية ابنتها خديجة البالغة من العمر ١٣ عامًا، من الرجّل الأوّل الذي طلب يدها. وبعد شهرين من الاعتداء الجسدي، عادت خديجة إلى والدتها وطلبت الطلاق. وبعد فترة وجيزة تم تزويجها من رجل آخر، ومرة أخرى وفي غضون شهر، أعادها إلى أمها في «زيارة» ولم يعد أبدًا! حينها كانت خديجة حاملاً، ولم يكن لدى خالديّة أي وسيلة لإعالة المولود الجديد، خاصة مع ارتفاع تكلفة العلاج الطبي اللازم لمرض رئة الطفل؛ بسبب النُزل المتعفن في المخيم. وبدون علم خديجة، اصطحبت خالدية المولود الجديد إلى عائلة الأب، فغضبت خديجة وهاجمت والدتها ومكثن مدة عام في شقاق دائم «يعيشان في الجحيم».

لذا وللمرة الثالثة، زوّجت خالدية ابنتها خديجة من رجل آخر على أمل أن ينجح الأمر هذه المرة، تقول خالدية «هذا ليس ذنبي»، ومرة أخرى، عادت خديجة - مطلقة للمرة الثالثة - ولديها طفل بعيد عنها تتوق إليه، وتعاني من قدرٍ كبيرٍ من الألم النفسي والجسدي، كلّ ذلك قبل أن تبلغ العشرين من عمرها!

تقول خالدية «لقد ارتكبت الخطأ نفسه ثلاث مرات، يا لها من فتاة مسكينة، إنها لا تتحملني، وفي كل مرة تراني فيها، تخبرني أنها تكرهني. لن أفعل هذا مرة أخرى مع ابنتي الصغرى، ولن أزوّجها طفلة حتى لو بلغت سن الثلاثين». كانت خالدية واحدة من الأشخاص الذين وقعوا على تعهد الحملة بعد لقائها مع بعض المنظمات، وشعرت بالقدرة على مشاركة قصتها الخاصة بعد سماع قصصهنّ.

تقول خالديّة: إنها شعرت بالحرج من مشاركة قصتها من قبل، خوفًا من أن يوصمها جيرانها ومجتمعها ويسخرون منها، لكنها الآن لا تدّخر أي فرصة لمشاركة تجربتها. وبصوت عميق آسف، تقول خالدية: «أنا الآن على استعداد لسرد قصتي مُباشرة على جميع المحطات الإذاعية، كنت أُفضّل أن أعيش على البصل و [قطعة] الخبز بدلاً من أن تمر ابنتي بهذه التجارب المريرة، نعم تعلّمت درسًا قاسيًا.

الاحتفال أم عدم الاحتفال؟

بعد تحقيق النجاح الباهر للحملة في حزيران من خلال الحصول على أكثر من ١٨٠٠ تعهد، وتغيير موقف ١٧٦ عائلة، يتحمّس الجميع للاحتفال! وفي شهر تموز، يبدأن بالتحضير له، لكنهنّ مضطرات لإلغائه بسبب عمليات الإغلاق المختلفة المرتبطة بجائحة كوفيد - ١٩. وفي آب، تحدد المنظمات موعدًا آخر للاحتفال ويحجزن مكانًا ويصممن برنامج الاحتفال، إلا أنه عندما يبدأن بإرسال الدعوات، يضطررن لإلغاء الاحتفال مرة أخرى، ليشاركن البلد بأكمله بالحداد على الموت والدمار اللذَين سببهما انفجار بيروت. ولاحقًا في أيلول، وبدلاً من الاحتفال، أقمن حدثًا عامًا كلقاء ختامي حضره المنظمات والمنظمون وأعضاء وعضوات المجتمع والعائلات الداعمة.

على الرغم من نجاحهنّ، إلا أنهنّ ما زلن غير مكتفيات. ويزداد هذا الشعور بعدم الارتياح عندما تقوم روان بـ «التقييم الختامي» مع فريق القيادة. قبل هذا الاجتماع، تحدثت القياديّات مع جميع المُنظِمات في فرقهن الأساسية وفرقهن الفرعية، وبينما كانت المنظمات فخورات بأنهنّ حققن هدفهنّ الاستراتيجي، إلاّ أنّ القياديات أعادوهنّ إلى لحظة وضع المفاهيم الأساسية، إذ كان التغيير الشامل الذي يرغبن فيه هو الحد من تزويج الأطفال. قالت كثيرات: «لدينا ١٨٠٠ تعهد، لكن هل هذا يعني في الواقع أننا قللنا عدد الزيجات؟ كيف نعرف أن الذين وقعوا على التعهد سيلتزمون فعلاً؟» ومع كل سؤال يتم طرحه، ظلت القياديات يتذكرن أنه خلال اجتماعات المنزل التي عقدنها، كانت الكثير من النساء يخبرنهنّ أنّ هناك المزيد ممّا لابد من القيام به. وبناء على ذلك، فإن القياديات يواجهن خيارين: إنهاء الحملة بهذا الحفل الختامي والاستمرار في تذكر الإنجاز العظيم الذي حققنه، أو الدخول إلى الأعماق، وتحدي أنفسهنّ بشأن ما يمكنهنّ القيام به والمضي قدمًا.

إنه الآن أيلول ٢٠٢٠، الأزمة الاقتصادية في لبنان ازدادت سوءًا. لقد أصبحت الكهرباء والوقود من السلع النادرة والمكلفة. والكثير من العضوات يتعاملن مع صراعاتهنّ الشخصية، بينما يحاولن البقاء على قيد الحياة وسط هذه الظروف الخانقة، والدماء التي لم تجف بعد انفجار بيروت.

وحتى إذا قرّن المضي قدمًا، فإنهنّ لا يعرفن ما إذا كانت منظمة «النساء الآن» ستتمكن من تقديم نفس المستوى من الدعم، والذي كان حاسمًا لقدرة عضوات الحملة على الالتقاء والوصول إلى التدريبات والتنقل وتنفيذ المرحلة الأولى. وإن ذهبن إلى منظمة النساء الآن، فماذا سيكون جوابهّن؟ وهنّ لا يحملن خطة واضحة بين أيديهنّ. ومن أجل اتخاذ القرار، أعدن توجيه السؤال إلى المجموعة الأكبر؛ فتأتي الإجابة واضحة جدًا: يجب أن تستمر الحملة.

المنظِّمات والمنظِّمون في لقاء نهاية المرحلة الأولى

مسلحات بإيمانهنّ وحماسهنّ نحو أهمية كفاحهنّ للحد من تزويج الأطفال، يحمل الفريق المؤسس حماسه إلى منظمة النساء الآن ومؤسسة أهل، وهو المكان الذي سيحقق الخطوة الاستراتيجية التالية. وهنا، تقوم مؤسسة أهل بتدريب فريق القيادة على كيفية إجراء حملة استماع، ثم يقوم أنس بتدريب المنظِّمات عبر جميع الفرق على نفس التأثير. ولهذا، قرروا سؤال شبكة الدعم التي بنينها خلال العام الماضي ومعظمهنّ من النساء عما هو مطلوب؟، بالإضافة إلى سؤال الأشخاص الذين وقّعوا على التعهد أو علّقوا شعار الحملة أو سمعوا عن الحملة. وبين تشرين الثاني ٢٠٢٠ وكانون الثاني ٢٠٢١، أجرت عضوات الحملة حملة استماع مكثفة مع ٥٠٠ أسرة، وتلقين رسالة بالإجماع تقريبًا، تقول «أخبروا الرجال عن تزويج الأطفال! فهم أصحاب القرار في مجتمعنا، ويجب أن تتوجهوا نحوهم».

اليوم الذي «تعرضتُ فيه للاعتداء في الشارع»

كنتيجة لحملة الاستماع، واجهت قياديات الحملة معضلة في اتخاذ القرار. لقد كنّ يعملن في الغالب مع النساء،

> وتعمل منظتهنّ الداعمة - منظمة النساء الآن - بشكل دقيق مع النساء والفتيات، لكن هؤلاء النساء أنفسهنّ يتحدثن الآن عن الحاجة إلى تغيير نهجهنّ.

فقد أثار اقتراح العمل مع الرجال في فريق لجين نقاشًا ساخنًا. فبعضهنّ ومعهنّ لجين نفسها، تساءلن «كيف نُشرك الرجال؟ ألن يؤدي ذلك إلى تخريب القيادة، والسلطة، والقوّة للنساء اللواتي نحاول تمكينهنّ؟ هل ستظل الحملة بقيادة المناصرات لها فقط؟».

بحسب لجين، أدّت هذه المناقشات في النهاية إلى قرار متوازن. فهنّ يعتقدن أنّ التغيير الحقيقي يحدث خطوة بخطوة. «لا يمكننا فرض طرقنا على الناس، وإذا فعلنا ذلك، فإننا سوف نخسر. ومن خلال جعل الآباء يتحدثون إلى الآباء والإخوة يتحدثون إلى الإخوة، سنحقق هدفنا، وفي الوقت نفسه [كنساء] سنواصل قيادة هذا الجهد وتوجيهه».
وتوافق لينا لجين وتقول: «لم نرغب في إثارة أي مشاجرات بين الزوجات وأزواجهنّ، لذا من الأفضل ترك الأب يمارس السلطة [التي يمتلكها] بشكل إيجابي من خلال عدم السماح لابنته بالزواج في سن مبكرة. «وفي النهاية، فإن العمل مع الرجال هو ما يطلبه أهل القضية ولذلك استجابت المنظمات لهذه الدعوة.
إلى جانب هذا التحول التأسيسي، تحدث تغييرات هيكلية أخرى، وتصبح هذه لحظة تجديد في حياة الحملة! تغادر العضوات غير النشيطات وبعض منظّمات الفرق الممتدة الأولى والثانية بينما ينضم قادة وقياديات جدد. إنّ العديد من المنظمات الجُدد هنّ من بين الأشخاص الذين تفاعلوا مع الحملة في مرحلتها الأولى أثناء توقيع التعهدات أو تعليق الشعار، بينما المنظمات من المرحلة الأولى مستعدات لتولي أدوار قيادية أكبر، وهو أمر أساسي للحفاظ على بنية جماعية قوية ومستدامة للقيادة في نهج التنظيم المجتمعي.

لقد حان الوقت لكي يتنحى أنس عن منصبه كمنسق للحملة، وأن يقوم شخص آخر بهذه المسؤولية، ترشّحت اثنتين من عضوات الفريق المؤسس - صفاء وفاطمة - للانتخابات وفازت فاطمة بأصوات أعلى لتتولى دور منسقة الحملة. مارس أنس هنا دوراً جديداً وهو تمكين منسقة الحملة الجديدة فاطمة العتر.
في أيار ٢٠٢١، اجتمع ٦٠ من قياديات وقادة هذه المرحلة، جددًا وقدامى - في ورشة عمل لوضع الاستراتيجيات من أجل تطوير هدفهنّ الاستراتيجي الجديد، ونظرية التغيير والتكتيكات والهيكل التنظيمي.

لكن هذه المرة، حدث شيء غير متوقع! لقد تذكرن أن لديهنّ بالفعل مجموعة ذات وزن من الرجال الداعمين من المرحلة الأولى، ولقد اكتسبن الثقة والشرعية داخل مجتمعهنّ؛ حيث يعرف الناس من هنّ وما هي قصتهنّ. إن السؤال المطروح الآن: كيف سيأخذن التعهدات خطوة إلى الأمام؟ وتسأل لجين: كيف سيتأكدن من أنّ هذه التعهدات ليست «حبرًا على ورق»؟

> مرة أخرى، وجدن الإجابة مما سمعنه أثناء جلسات الاستماع. وقد علمن ذلك بالصدفة، خلال المرحلة الأولى من الحملة، حيث قامت ١٣ من أصل ١٧٦ عائلة بتغيير موقفها من تزويج الأطفال، وبالفعل تم إلغاء الخطوبات.

سارة[٦] امرأة لبنانية عضوة في الحملة، تُعيدهنّ إلى اليوم الذي كانت تزور فيه عائلة على أمل تغيير وجهة نظرها. كانت الأسرة مؤيدة بشدة لتزويج الأطفال، وكانت المحادثة تجعل سارة متوترة للغاية. لكن في تلك اللحظة بالذات، مضت حياتها أمام عينيها، وتذكّرت كيف هربت ليلة زفافها من منزل زوجها وتبعت والديها، ليعيداها إليه رغمًا عنها. وفي نفس الليلة تعرضت للاغتصاب الزوجي، وقد عاشت معه لتربية أطفاله، وعندما رزقت لاحقًا بطفل، وجدت نفسها مُجبرة على ولادة الطفل بمفردها في المنزل في حوض الاستحمام. وفي غضون ثوانٍ، استرجعت سارة شجاعتها وشاركت قصتها مع تلك العائلة.

وبعد لحظة من الصمت التي شعرت بها سارة، وكانت لحظة تساوي العمر كاملاً، أخبرتها الأم أنّ العائلة لم تكن مؤيدة فقط لتزويج الأطفال، ولكن ابنتها كانت مخطوبة في الواقع. ومع ذلك، بعد سماع تجربة سارة، قررت العائلة إلغاء خطوبة ابنتها.

مع وضع كل ذلك في الاعتبار، فهنّ الآن يتخذن قرارًا جريئًا. وهدفهنّ الاستراتيجي لهذه المرحلة هو إيقاف ٥٥ خطوبة [٧] ونظريتهنّ في التغيير هي أنهنّ بحاجة إلى إقناع ٥٥ أبًا - أصبح يُطلق عليهم فيما بعد اسم «الآباء الشجعان». وللقيام بذلك، تبدأ قياديات الحملة بحشد كتلة كبيرة من الرجال المناصرين. وهدفهنّ هو مقابلة ٢٢٠ رجلاً إما محايدين أو داعمين للحملة، ومن بينهم التزم ١١٠ بتنفيذ التكتيك. وبحلول تشرين الأول ٢٠٢١، سيبدأ نصف الملتزمين (أي ٥٥ رجلاً) في التحدث إلى الآباء في المجتمع الذين تمت خطوبة بناتهم فيه، ووافقوا رسميًا على الزواج. وتؤكد لينا أن هذا التكتيك لم يكن ممكنًا لولا حملة الاستماع.

تقول لجين: «هذه المرة، كانت الصفقة الحقيقية» لكنها كانت» من المحرمات، فهذا موضوع حساس للغاية، وكنا فعليًا نتدخل في شؤون الناس!» ومن الواضح أن ثقة الفريق قد تعززت، وتم تمكينه من قبل جماهيره من المرحلة الأولى. لذا، فقد تصعّدت تكتيكاتهنّ إلى حد ما. وهنّ الآن يتجهن نحو المواجهة التصادمية. فهل سيستمر المجتمع في قبولهنّ؟ أم أن طلبهنّ يتجاوز ما يرغب المجتمع في تحمله؟

لقد بدأن في تنفيذ خطتهنّ، إلا أنه قد تبيّن أن مسعاهنّ أصعب مما اعتقدن!

جمعة الأحمد هو أحد الأشخاص الذين وقّعوا على تعهد الحملة خلال المرحلة الأولى، وتم حشده لاحقًا من قبل جارته وإحدى قياديات الحملة حنان عتر، لينضم كمنظم في هذه المرحلة الثالثة. جمعة لديه ابنة تبلغ من العمر ١٥ عامًا، لا يريد أن يزوّجها قبل أن تبلغ ١٨ عامًا. يروي أنه في كل مرة يذهب فيها إلى المحكمة ليكون شاهدًا على عقد قِران، كان يرى عددًا أكبر من الأشخاص المطلقين وأكثر من المتزوجين، وكثير منهم من الأطفال. يقول جمعة: «كنت أرى طفلة تحمل طفلاً أثناء شجارها مع زوجها في قاعة المحكمة» ولا يريد ذلك لابنته. قال: «أخبرت الآباء عن توجّهي مع ابنتي»، وأقنعت ستة رجال بالالتزام [بفعل] الشيء نفسه، لكن لم يوافق الجميع. إنه لأمر مُخيب للآمال عندما تُقابل برفض من الناس، لكننا نفعل ما في وسعنا».

إنه الآن أيلول ومازال الفريق يكُافح للوصول إلى الهدف. يقول أحد المُناصرين «عندما طلبت مني المنظمات إيقاف خطوبة أحدهم، ارتعبت! لأنها مهمة خطيرة».
إنّ العديد من الرجال يتردّدون في الانضمام بسبب معتقداتهم وضغطهم الاجتماعي، ويزداد هذا التردد عندما يبدأ بعض المشايخ في مهاجمة الحملة، ويبدأ بعض الرجال المناصرين الذين انضموا في البداية في الانسحاب. ومع ذلك، توقعت قياديات الحملة ردة الفعل هذه، ولهذا السبب حصلن على دعم شخصيات دينية من ديانات وطوائف متعددة منذ البداية.

وقد اندلع توتر في تدريب حضره (٢٤) من المُناصرين المحشودين حديثًا، فالرجل الذي أيّد الحملة في البداية كانت تراوده الشكوك بعد سماع شيخ في خطبة الجمعة في ذلك الأسبوع، يقول إن الحملة ذاتها تُهدّد النسيج الاجتماعي. وقد حضر التدريب واتهم الحملة بتنفيذ أجندة خارجية و «تخريب الدين».

فاطمة لم تواجه مثل هذا النوع من الاتهامات من قبل، لكن الاعتماد على قصتها الشخصية كان يمنحها قدرًا كبيرًا من القوّة للتعامل مع الموقف. وفي تلك اللحظة، تقف فاطمة وترد عليه من صميم قلبها قائلة: «اذهب واسأل كل النسّاء في الحملة، من هنّ؟ سيخبرنك أنّنا نحن من عانينا وتعرضنا للإيذاء على مدى عقود، ونحن بنات هذا المجتمع، وهو المكان الذي ننتمي إليه، ولسنا من الغرب».

في النهاية، طمأنت المناقشات الجماعية، وتسجيل الفيديو للشخصيات الدينية، هؤلاء الرجال الذين شعروا بالقلق بشأن ادعاءات بعض الشيوخ، وبالتالي تمت استعادة التوازن بين صفوفهم.
تشير لينا إلى أنّه «في حين أن الدين أكثر تسامحًا، فإن الحاجة الاقتصادية غالبًا لا يمكن التغلب عليها» ويؤكد جمعة أن المواقف التي يحدث فيها تزويج الأطفال بسبب الضرورة الاقتصادية غالبًا ما تكون» المحادثات فيها الأكثر صعوبة والأقل نجاحًا»، وتعد الضغوط الاقتصادية عقبة أمام الرجال للانضمام إلى الحملة، إذ يحتاج الكثيرون إلى إعطاء الأولوية لكسب الرزق بدلاً من التطوع في الحملة، وبعض الرجال ينسحبون نتيجة لذلك.

> ومع ذلك، هناك اعتبار آخر يعيق قدرة قياديات الحملة على حشد المزيد من الرجال. لأنّ أحد العوامل المهمة في إقناع الناس بهذا الموضوع الحساس، هو سماع تجارب النساء اللواتي تحملن ذلك بشكل مباشر، وهي كما يقول جمعة «على عكس أي نوع من المحاضرات، فهي حقيقية للغاية».

ولكن، ذات يوم كانت إحدى منظِّمات الحملة قد حددت موعدًا لعقد اجتماع مع رجل في المخيّم لحشده كمناصر، إلاّ أن زوجته لم تكن راضية عن هذا الاجتماع، ولذا في اليوم التالي، «واجهت الزوجة المُنظِمة واعتدت عليها بالضرّب في الشارع». وفي أحيان أخرى، قد يلتزم الرجال بالانضمام وبعد يوم واحد يطلبون سحب التزامهم لهذا السبب، وهذه هي إحدى أنواع الحساسيات التي «نحتاج إلى أخذها في الحسبان في اجتماع فردي بين الجنسين».

إنه الآن تشرين الأول ٢٠٢١، التقى الفريق بـ ٤٢٠ رجلاً والتزم منهم ١٤٠ بجهود الحملة، ولكن في ذلك الوقت لم تبدأ الحملة فعلياً بالعمل مع الـ ٥٥ رجلاً من الآباء الشجعان بعد!
محمد رجا من الرجال المناصرين الذين يلتزمون بالانضمام إلى هذه الجهود. حيث يحضر تدريبًا تنظّمه الحملة كل يوم أحد لمدة ثلاثة أسابيع لاكتساب مهارات التواصل والتفاوض، وسماع قصص من القياديات ومشاركة قصته الخاصّة، وتجهيز نفسه بالمعرفة حول المخاطر الصحية لتزويج الأطفال والتعرف على الحجج الدينية المدعومة من رجال الدين.

إن محمّدا البالغ من العمر الآن ٢٠ عامًا، مخطوب قبل عام لفتاة تبلغ من العمر ١٥ عامًا، وأدرك أثناء الخطوبة، أنهما لن يتمكنا من الاتفاق على أي شيء، لذلك سأل نفسه «إذا كان الأمر كذلك الآن، فكيف سيكون الأمر عندما نتزوج بالفعل؟» وعليه، قرر فسخ الخطوبة. لقد ندم محمد على قرار خطوبته في المقام الأول. ويقول إنه يفضل الآن الانتظار حتى ينضج أكثر، «وأي فتاة سأتزوجها لن تكون بالتأكيد أقل من ١٨ عامًا».

يوضح محمد أن قوة هذا التكتيك - أي إقناع الآباء بإلغاء الخطوبة - هو أنهم يتحدثون فقط إلى الرجّال الذين يعرفونهم شخصيًا.

تحدث محمد إلى بعض زملائه وجيرانه وأقاربه وأقنع صديقه بالالتزام بعدم خطوبة أخته في سن مبكرة. كما أقنع رجلاً آخر بإلغاء خطوبة ابنته. «وحتى أكون صادقًا، إنها ليست محادثة سهلة! ففي بعض المناسبات، كان عليّ أن أذهب ثلاث مرات إلى نفس المنزل لإقناعهم».

على الرغم من كون الفريق بعيداً عن الهدف لبعض الوقت، إلاّ أن شهر تشرين الثاني هو الوقت الذي تبدأ فيه الأمطار بالانهمار بشكل قوي. في ذلك الوقت، تمكّن حوالي ٩٠ رجلاً مناصراً من الـ ١٤٠ من أداء المهمة، بدلاً من ٥٥ الذين كانوا الهدف. وبحلول نهاية الشهر، فاجأ المناصرون الـ ٩٠ الجميع. فلقد ألغوا ٦١ خطوبة، وتم تأجيل ٥٠ خطوبة [٨] ووافقت ١٠٠ أسرة على عدم «عرض» بناتها للخاطبين. وهذا شكّل في مجموعه ٢١١ طفلاً وطفلة، أي ما يقرب أربعة أضعاف الهدف الأوليّ للحملة. يقول أنس: «أردنا في البداية الوصول إلى ٥٥ أبًا شجاعًا، لكننّا وصلنا أيضًا إلى فئات جديدة». فمن المجموع، كان هناك ١٦٨ أبًا شجاعًا، و٢٧ عريسًا شجاعًا، وأخّان اثنان شجاعان، و١٤ أمًا شجاعة، كلّهم جعلوا هذا النجاح حقيقة على أرض الواقع.

أقام فريق (لا تكبرُونا) احتفالاً عامًا حضره أكثر من ٣٠٠ شخص لتكريم أفراد المجتمع الشجعان هؤلاء. وأعطوهم شهادات وأثنوا على قيادتهم. وفي حين أنّ الاحتفال كان للإشادة بموقف أفراد المجتمع الشجعان وكذلك جهود القياديات والمناصرين في الحملة، فقد خدم أيضًا الغرض من إعلان هذه الالتزامات علناً، وبالتالي تقليل احتماليّة تراجع البعض عن وعودهم. يروي أنس أيضًا عن يوم الاحتفال، كيف بدأ العديد من أفراد المجتمع في التجمع، وعندما كان الناس يستقلون الحافلات للوصول إلى المكان، كانت هناك عشر حافلات تنطلق من عشرة مواقع نقل، وفي جميع المواقع بدأ الناس يسألون «إلى أين أنتم ذاهبون؟ خُذونا معكم للاحتفال!

تكريم الآباء الشجعان في حفل نهاية المرحلة الثالثة

التفكير في التأثير

إن التفكير في رحلة (لا تكبرُونا) يدعو إلى العديد من جوانب التأمّل. وربما تكون الملاحظة الأولى هي الدور الذي لعبته منظمة «النساء الآن» وتحلّيها بالإيمان بنهج التنظيم المجتمعي واعتماده كنهج تنظيمي في هذه الحملة. إنه موقف حساس للغاية، فصحيح أنّ المنظمة دعمت الحملة ومكنتها بكل طريقة ممكنة، ولكن لم يكن لموظفات وموظفي المنظمة (باستثناء أنس) أي مشاركة مباشرة في عمليات وقرارات الحملة اليومية. وتكمن قوة هذا التوازن في حقيقة أن منظمة «النساء الآن» تركت القيادة والمسؤولية وعمليّات التخطيط وصنع واتخاذ القرارات لقياديات ومنظمات الحملة.

نظرًا لأن الغالبية العظمى من المنظِّمات في الحملة هنّ عضوات في المجتمع وينتمين إلى الدائرة المجتمعية المتأثرة بالقضية، فقد تمكنّ من تشكيل وتكييف إطار العمل ليناسب احتياجاتهنّ وسياقهنّ. ويتجلّى ذلك في تبني الحملة للتدخلات ذات الجذور الثقافية.

كان التدخل الأوّل تفاعلهنّ المثمر مع الخطاب الديني وانخراطهنّ مع الشخصيات الدينية ورجال الدين. وفي كثير من الأحيان يتم نصح الحملات أو دفعها لاتباع نهج قائم على الحقوق بشكل صارم أو قانوني أو علماني. لكن قياديات ومنظمات (لا تكبرُونا) كنّ يعرفن مدى أهمية عامل الدين بالنسبة لهنّ، وكذلك لمجتمعهنّ ككل، ولذا فقد ثبتن أنفسهنّ على هذه الأصول.

يؤكّد عبدو حمود - مدرس علم الاجتماع ومربي ذو خبرة في مجال الدعم النفسي الاجتماعي، وأحد الرجال المناصرين في الحملة - على أهمية هذا الجانب. ويوضح قائلاً: «نحن نعيش في مجتمع محافظ، والعديد من الناس لديهم معتقدات مشوهة [عن الدين]، ولذلك يمكن لرجال الدين هنا أن يلعبوا دورًا إيجابيًا في تصحيح هذا الأمر. لذلك عندما دعت حملة [لا تكبرُونا] رجال الدين للاحتفال معها، فقد كسرت نوعًا ما [حاجزًا] «.

أما التدخل الثاني المتجذر ثقافيًا، فقد تجسد في الاستجابة لمطالب المجتمع أثناء حملة الاستماع، عندما تم حثهنّ على العمل مع الرجال. ومرة أخرى، ومن منظور نسوي تقليدي، قد يبدو هذا خروجًا مذهلاً عن النهج. ولكن «أهلُ مكة أدرى بشعابها» وأعضاء وعضوات المجتمعات هم الأكثر معرفة بطبيعتها، مما يعني أيضًا أنهم يعرفون الحلول الممكنة لقضاياهم.

أدى الاندماج بين منظمة نسوية قاعدية ومجموعة محلية من أهل القضية، إلى ولادة هيكل غير عادي لندفة الثلج. وعادةً ما يستلزم الهيكل التنظيمي لندفة الثلج في المجتمع إلى دائرة واحدة في المنتصف (مثل مركز ندفة الثلج)، والتي تُعرف باسم الفريق المؤسس حيث تعمل كل عضوة فيه كمنسقة لفريق جغرافي أو وظيفي، ثم كل فريق من هذه الفرق سينتقل إلى فرق فرعية أخرى مع قادة من الفرق التوسعية الثانية وما إلى ذلك. وقد فعلت حملة (لا تكبرُونا) شيئًا مختلفًا.

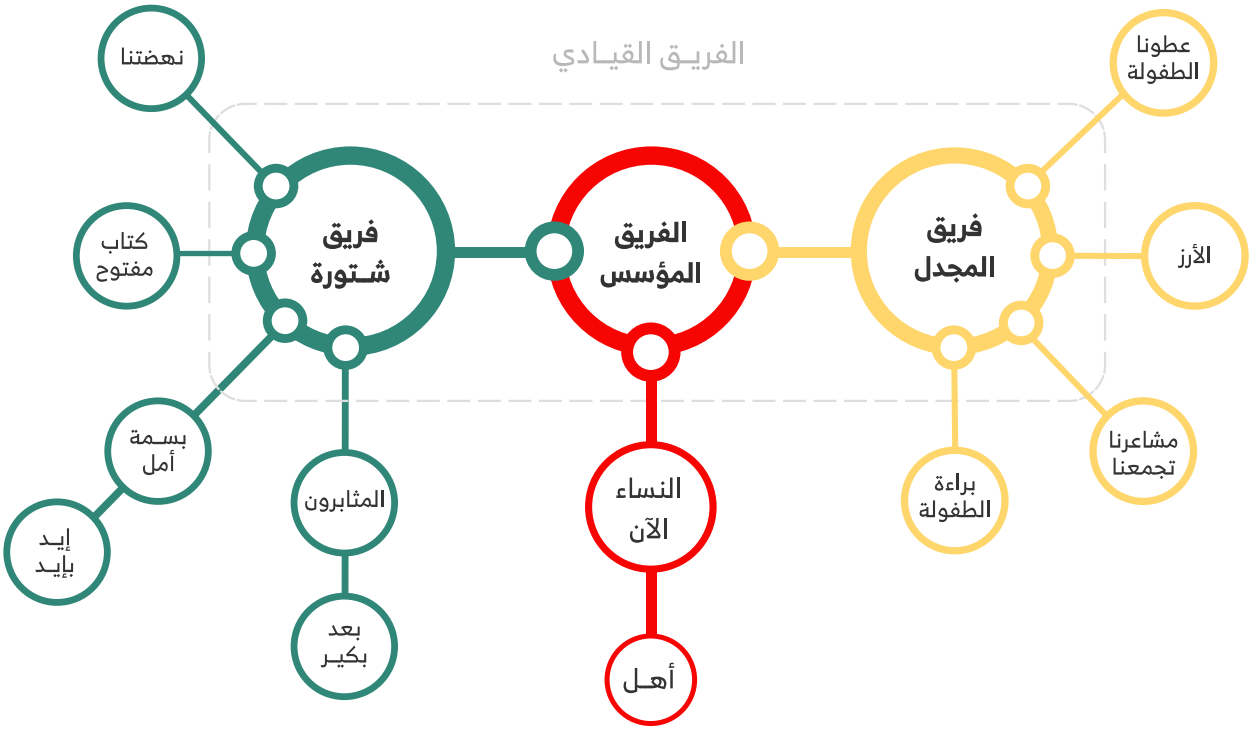

في هـذا الهيـكل، نـرى الفريقيـن الأساسيين الجغرافييـن لشـتورة ومجـدل عنجـر (اللذيـن تمـت الإشـارة إليهمـا بفـرق القيـادة فـي دراسـة الحالـة هـذه) وفريـق أساسـي مركـزي واحـد يتألـف مـن منسـقة الحملـة ومنسـقتي فـرق القيـادة اللواتـي كـنّ علـى اتصـال وثيـق مـع منظمـة النسـاء الآن ومؤسسـة أهـل طـوال الوقـت. ولقـد كان هـذا النهـج المبتكـر لهيـكل ندفـة الثلـج وتكييفـه مـع الحالـة، هـو الـذي مكّـن هـذه الشـراكة المؤسسـاتية الشـعبية التـي وازنـت بيـن تقديـم الدعـم وتفعيـل قيـادة أهـل القضيـة. هنـاك جانـب آخـر مهـم مـن هـذا الهيـكل، يتمثـل فـي قدرتـه علـى اسـتيعاب الطبيعـة المتقلبـة للمجتمـع السـوري اللاجـئ فـي لبنـان والـذي هـو فـي حالـة تنقّـل مسـتمر. وكمـا رأينـا، كان التـزام القياديـات ببنـاء القـدرات ونقـل المعرفـة أمـرًا أساسـيًا للحفـاظ علـى مرونـة الهيـكل التنظيمـي فـي مواجهـة هـذا الوضـع الـذي يتسـم بعـدم الاسـتقرار ومحدوديـة الوقـت.

وهنالـك ملاحظـة مهمـة أخـرى حـول قـوة القصـة؛ فلقـد رأينـا كيـف اسـتخدمت النسـاء اللواتـي يقـدن الحملـة قصصهّـن كتكتيـك فـي كل تفاعـل لديهـن، مـن اللقـاءات المنزليـة إلـى اللقـاءات الفرديـة إلـى التواصـل الإعلامـي. وفـي حيـن أن لهـذا قـوّة كبيـرة مـن جهـة، إلاّ أنّ لـه قـوّة هامّـة علـى الجهـة الأخـرى؛ ألا وهـي اسـتخدام القصـص لمعرفـة أهـل القضيّـة المتأثّريـن، وحشـد العضـوات والأعضـاء، وحـل النزاعـات، وبنـاء علاقـة قويـة داخـل الفريـق، وأكثـر مـن ذلـك.

وبعبـارة أخـرى، اسـتخدم أهـل القضيـة قصصهـنّ الخاصـة كممارسـة قياديـة فـي تنظيمهـنّ اليومـي وليـس فقـط كتكتيـك خارجـي.وهـذا مـا جعـل الفريـق كتلـة واحـدة ملتصقـة معـاً.

ونتيجة لهذه الممارسات، ترابط الفريق بإحكام وأصبح يُشكّل عائلة! تجربة فاطمة، خير مثال يجسّد هذه الرابطة بجمالها. تشرح كيف جعلتها الحملة أقوى، وتقول «قبل الحملة كنت ضعيفة، ولكن مع عائلة (لا تكبرُونا) التي نمت من ٤٢ فردًا إلى ٦٠ فردًا، وأعدهم جميعًا الأسرة التي تدعمني، أشعر بأنني أكثر قوة». فبصفتها امرأة منفصلة، تواجه فاطمة وصمة العار المفروضة عليها من قبل مجتمعها الأوسع، حيث تقول: «إنهم لا يقولون إنني فعلت الشيء الصحيح؛ حين أنقذت حياة ابنتي، وكان على عمتها أن تذهب معها إلى الطبيب وتسمع بنفسها أن ابنتي مصابة بالتهاب عصبي بنسبة ٨٠٪ لأن زوجي لم يصدقني واعتقد أنني أقوم بتأليف الأشياء للحصول على طلاقها». لكنني عندما أكون محاطة بأشخاص يهتمون بقضيتي بعمق فهؤلاء فقط «يذكرونني أنني اتخذت القرار الصحيح، هذا وحده يكفي [ليجعلني قوية]».

قد نعتقد أن مثل هذا الرابط الأسري القوي من شأنه أن يحوّل المجتمع من مساحة تنظيمية إلى مساحة علاقات اجتماعيّة وبالتالي يؤثّر على وتيرة العمل وجديّته.

> ولكن صحيح أن القياديات والقياديين في الحملة تفاعلوا اجتماعياً مع بعضهم البعض ولكن هذا التفاعل والترابط مكنّهم من التنظيم بشكل أعمق وأفضل.

تؤكد لجين أنه «لم نكن لنحقق هذا دون المتابعة والمساءلة والتفكّر بعمق» وتلك هي العملية الدقيقة التي أشادت بها روان في وقت سابق في دراسة الحالة، عندما استمرت فاطمة وصفاء وراما بقيادة حملة الحشد الأولى وأصبحت الثقافة الضمنية. تتذكر العضوات كيف أنه في كل مرة كانت تتلقى فيها أي منهنّ تعهدًا من عائلة، كنّ يرسلن تحديثًا على مجموعة الواتسأب، يهنئنّ بعضهنّ بعضاً، ويتمسكن ببعضهنّ بعضاً في أوقات الشدّة، وقد قمن بالمتابعة مع الموقعين لترجمة تعهدّاتهم إلى أفعال من خلال تكتيك تعليق الشعار. وكنّ يؤكدن التزام أولئك الذين أوقفوا تزويج بناتهم من خلال الحصول على شهاداتهم عبر الفيديو، وفي نهاية المطاف إقامة احتفال كبير لجميع الآباء والأمهات والإخوة والعرسان الشجعان. إنّ الأسرة المُنظمة التي تحمّل بعضها بعضاً المسؤولية بالحب، تبدو وكأنها حلم بعيد المنال! لكنها كانت حقيقة واقعة في (لا تكبرُونا).

بدأت رحلة (لا تكبرُونا) من فكرة إلى واقع بدفعة إيمانية، ليس فقط بسبب رغبة وجرأة منظمة النساء الآن أخذ المخاطرة لتجربة نهج جديد؛ الأهم من ذلك يكمن بثقة المنظمّة في القدرة الجماعيّة للأفراد على إحداث تغيير ذي مغزى. كان هذا واضحًا عندما ساعدت المنظمّة أنس لتخصيص ٦٠٪ من وقته للحملة، وكان واضحاً في كل مرّة أصرّ فيها أنس ألاّ يتم اتخاذ أي قرار في الحملة إلاّ من قبل أهل القضية وقياديّاتها، وعندما تنحّى عن دورهُ كمنسق للحملة بمجرد استعداد الأخريات لتولي هذا الدور.

وكان واضحًا أيضًا، عندما وثقت فاطمة وصفاء بعضوات فريقيهما لتنفيذ حملة حشد لقياديات من الفرق التوسعية الثانية. **وهذا هو بالضبط ما يتمحور حوله التنظيم المجتمعي: اتباع قيادة الأكثر تأثراً.** إنّ فريق الحملة لم يعالج قضية تزويج الأطفال بشكل ملموس فحسب، بل أصبح لديه الآن قدرة قيادية هائلة يُمكنه توظيفها بشكل خلاقّ لإطلاق المزيد من الحملات وحل المشكلات الملحة الأخرى التي يواجهها في مجتمعه.

بخطى ثابتة نسير نحو الأمام

بعد نحو أكثر من عامين على انطلاقة حملة لا تكبرونا، مرت خلالهما الحملة بثلاث مراحل بنجاح (التعهدات، حملة الاستماع، وإلغاء الخطوبات)، وكان لها حفل ختامي كبير في تشرين الثاني ٢٠٢١. هنا، لا يسعنا إلا أن نسأل: ماذا بعد؟

تشعر قياديات الحملة بالحماس نحو ما يمكنهنّ تحقيقه من إنجازات خلال عام ٢٠٢٢. وتعهّدت كل من منظمتي النساء الآن وأهل بدعم الحملة في مرحلتها الرابعة. تأمل قياديات وقادة الحملة، النساء الآن، وأهل بأن يستفيد الآخرون والأخريات (أفراد، وشبكات غير رسمية، ومنظمات) من هذه التجربة. فمشكلة تزويج الأطفال لا تنحصر في منطقة البقاع ولبنان فحسب، بل هي مشكلة مستمرة في جميع أنحاء العالم. وقد عملت منظمات لا حصر لها على مواجهة هذه الظاهرة بنهج زيادة الوعي، لكن لا توجد أدلة كافية على أنّ زيادة الوعي قد حدّت بالفعل من ظاهرة تزويج الأطفال.

إن تجربة لا تكبرونا هي دليل عل التحوّل الذي يمكن للمجتمعات الأكثر تأثراً بمشكلة ما تحقيقه عند اتّباع نهجي التنظيم المجتمعي والقيادة التشاركية. هل ستُلهِم تجربة هذه الحملة منظمات أخرى لأخذ هذه القفزة الإيمانية واختبار التنظيم المجتمعي كوسيلة لإعادة القوة للمجتمعات المتأثرة؟

الـهوامـش

١. شكراً جزيلاً للعديد من الأفراد الذين بذلوا وقتهم وجهدهم للمساعدة في تطوير دراسة الحالة هذه. أولاً، شكر لقياديات وقادة ومناصري حملة لا تكبرونا ومنهم فاطمة العتر وغيداء دوماني ولجين طواشي ولينا درويش وكوثر عبد الفتاح وأحمد شحادة وجمعة الأحمد، ومحمد رجا، وعبدو حمود. وشكرا جزيلا لخالدية. أتقدم بخالص شكري لأنس تللو. وعلاوة على ذلك، أتقدم بالشكر لفريق أهل الذي يضم ريم مناع وفرح هلسة وروان الزين ونسرين حاج أحمد.

٢. لمعرفة المزيد عن حملة عائلات من أجل الحرية، يرجى الرجوع إلى الموقع الرسمي للحملة https://syrianfamilies.org/ar

٣. يُمكن الرجوع إلى آبي سويل (٢ آذار / مارس ٢٠١٩) «لبنان: المزيد من العائلات تزوّج بناتها المراهقات في ظل أزمة اقتصادية موقع العربية- باللغة الإنجليزية»
https://english.alarabiya.net/features/2020/09/18/Lebanon-More-families-are-marrying-off-teen-age-daughters-as-economic-despair-sets-in?fbclid=IwAR0ZGxiN7_kqgcQTAYiIQKYU7d5BSOduml-rKhcnwevZ8CoYnTw1oJ59skNQ

٤. لقراءة المزيد عن البروفسور مارشال غانز ونهج التنظيم المجتمعي الذي طوره يُمكن زيارة صفحته باللغة الإنجليزية
https://marshallganz.usmblogs.com/

٥. نظراً لصعوبة جندرة كامل النص لغوياً سيتم الإشارة لعضوات وأعضاء الحملة بصيغة جمع المؤنث السالم كون الغالبية نسائية.

٦. تم تغيير الاسم للحفاظ على السرية.

٧. يستند الرقم ٥٥ إلى سجلات المحكمة الشرعية السنية في بر الياس، البقاع الأوسط، والتي تمكنت العضوات من الوصول إليها. بلغ عدد حالات تزويج الأطفال غير الرسمية التي تم إضفاء الطابع الرسمي عليها في المحكمة حوالي ١٨٥ حالة خلال آخر ٦ أشهر. وكانت العضوات يهدفن إلى خفض الزيجات بنسبة ٣٠٪ خلال فترة ٦ أشهر. ومع ذلك، يبقى هذا الرقم تقديرياً حيث هنالك الكثير من الزيجات لا يتم عقدها ولا تسجيلها في المحكمة.

٨. تراوحت أعمار بعض الفتيات بين ١٦ و ١٧ عامًا، لذا التزمت العائلات هنا بتأجيل هذه الزيجات إلى ما بعد بلوغ الفتيات ١٨ عامًا.